

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

خطب الجمعة

الإذاعة الأردنية - اللقاء المفتوح

2024-07-22

عمان

الأردن

الأستاذ حسين:

السيدات والسادة، المستمعون و المستمعات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله بأطيب تحياته، وأهلاً ومرحباً بكم في مستهل هذه الحلقة الجديدة من اللقاء المفتوح، وبرنامجكم فكر وحصارة.

مقدمة:

عنوان حلقة اليوم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۚ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۚ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ
فِي الْأَمْرِ ۚ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)

(سورة آل عمران)

وقال سبحانه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107)

(سورة الأنبياء)

صدق الله العظيم.

اتفق فقهاء العربية على أنَّ مفردة النبوَّة مستتقة من مصادر ثلاثة:

النبوُّ بمعنى الارتفاع والسمو، والنبوءة بمعنى الطريق الصحيح، والنبأ الذي هو الخبر الصادق ذو الشأن العظيم، والنبى جامع لكل هذه الصفات، فقد اكتملت فيه قبل النبوَّة وبعدها، صور الكمال البشري، حتى أنه صلى الله عليه وسلم، كان بمثابة كونٍ إنساني، انفتحت شخصيته على كل المعاني الإنسانية التي تصعد لله تعالى وتلتقي به وتعيش معه وتذوب فيه، ثم تتحرك من أجل أن تصنع الإنسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (128)

(سورة التوبة)

وفي القرآن الكريم وردت كلمة (خلق) بمشتقاتها نحو مثنين واثنتين وستين مرة، جاءت بضم الخاء (خُلِق) مرتين فقط، مرةً في مقام مدح النبي عليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

(سورة القلم)

ومرةً في وصف ما درج عليه الأولون من أخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولَىٰ (137)

(سورة الشعراء)

لكن من بين ستة آلاف وست وثلاثين آية، هي عدد آيات القرآن الكريم، لا يوجد سوى خمسمائة آية حسب الغزالي تتحدث عن الأحكام، فيما تتحدث الآيات الأخرى في كتاب الله العزيز عن الأخلاق، ولهذا صحَّ وصف عائشة رضي الله عنها، للنبي عليه الصلاة والسلام:

{ سئِلْتُ عائِشَةَ عن خُلُقِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقَالَتْ: كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنَ. }

(أخرجه أحمد والطحاوي)

في هذه الحلقة نستعرض سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وأخلاقه التي جسّدت صورة الإسلام، بل صورة الأديان في أدق وأجمل معانيها، وشكّلت نموذجاً للإنسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)

(سورة الأحزاب)

فما أوجنا اليوم إلى استذكار هذه القيم والأخلاق الكريمة، لنستلهم منها ما يساعدنا على فهم الدين أولاً، ومواجهة الحياة والتعامل مع من فيها، من بشرٍ وموجودات، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته دكتور بلال.

الدكتور بلال نور الدين:

حيّاكم الله أستاذ حسين، بارك الله بكم ونفع بكم، وشكراً لهذه الاستضافة الكريمة.

ماذا تحتل الأخلاق من الدين؟

الأستاذ حسين:

اسمح لي في البداية أن أطرح سؤال الأخلاق في الدين، ماذا تحتل الأخلاق في هذه المساحة الواسعة من الدين؟

الدكتور بلال نور الدين:

بارك الله بكم، الحقيقة أنّ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يقول: " **الدين هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الدين** "، وهذه المقولة لها في كتاب الله تعالى وشأنه رسوله صلى الله عليه وسلم، ما يؤيدها، فإن الدين عبارة عن عبادات ومعاملات، العبادات هي علاقة الإنسان بخالقه، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، والمعاملات علاقة الإنسان بمن حوله من البشر، في البيع والشراء والهبة إلى آخره....
وهناك فيه الأحوال الشخصية، وهي علاقته مع زوجته، في زواجٍ وطلاقٍ ونفقةٍ وغير ذلك، ويتّوج ذلك كله الأخلاق، فالأخلاق بمثابة رأس الهرم، لأن العبادات سُرعت لتحصيل الأخلاق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِئْتِ مَا أَوْجَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

(سورة العنكبوت)

ولأن المعاملات بين الناس تنتظمها الأخلاق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۚ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ
وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275)

(سورة البقرة)

من أجل أن لا نستغل حاجة الناس، واستغلال حاجة الناس خلؤ ذمير، والقرض الحسن خلؤ حميد، وقس على ذلك كل المعاملات، فكلها تنبع من الأخلاق، والأحوال الشخصية تنتظمها الأخلاق، علاقة الروح بزوجه هي الإكرام، يكرمها وتكرمه، يتقرَّب إلى الله بخدمتها وتتقرَّب إلى الله بخدمته، يتقي الله أن يظلمها وتتقي الله أن تظلمه.
فإذا ذهبنا إلى كل ما في الدين من عبادات ومعاملات وأحوالٍ شخصية، فإننا في مُحضلة الأمر نصل إلى الأخلاق، إذًا نحن مع قمة الهرم، لأن كل ما سُرع من الشرائع سُرع لتحصيل الخلق، إذًا ليس مبالغاً أن يقول ابن القيم رحمه الله: " **الدين هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الدين** "، فالأخلاق هي روح الدين وجوهره، تحتل منه الرأس من الجسد، وتحتل منه الروح من الجسد.

الأستاذ حسين:

بمعنى أنّ نقص الأخلاق، يعني نقصاً في الدين.

الدين المعاملة:

الدكتور بلال نور الدين:

منه بالمنة، قالوا: **الدين المعاملة**، هذا ليس حديثاً، لكن مضمونه شرعي، وجرت على السنة الناس أن الدين هو المعاملة، فالشخص الذي يفتقر إلى الأخلاق، هو في حقيقة الأمر يفتقر إلى الدين، يفتقر إلى التدبّر الصحيح، كان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر ما يدعو يقول:

{ **اللهم أصلح لي ديني** الذي هو **عصمة أمري** ، و **أصلح لي دُنْيَايَ** التي فيها **مَعَايِشِي** ، و **اجعل الموت رحمةً لي من كلِّ سوءٍ** }
(أخرجه البخاري ومسلم)

الدين عندما يخلو من الأخلاق بحاجة إلى إصلاح، الدين من عند الله كامل متكامل، لا يحتاج إلى تعديل ولا تغيير ولا تطوير ولا تحديث، لكن ديننا عندما تنقصه الأخلاق، فنهم أن الدين في المسجد فقط فهذه مشكلة.
المسجد أخي الحبيب، شرع من أجل أن تأخذ فيه التعليمات، ثم تعود إليه لتقبض الثمن، فمثلاً مندوب المبيعات يأتي صباحاً إلى شركته ليأخذ التعليمات، وفي المساء يعود بالمبيعات ويقبض الراتب.
المسجد والله المثل الأعلى وليوته المثل الأعلى، تأتي إليه من أجل أن تتعلم ديننا، ثم تعود إليه من أجل أن تأخذ السكينة، لكن أين ديننا؟ في المعاملة، في البيع والشراء، مع الزوج، مع البيت، مع الأولاد، مع الشريك في العمل، مع الناس في الطرقات، هناك يظهر تدبّر الإنسان، فتدبّره ليس في المسجد، الوضع الطبيعي أن يكون في المسجد أميناً صادقاً بأعلى مستوى، لكن دينه أين يظهر؟ يظهر في السوق، يظهر في المعاملة، لذلك عندما نجد إنساناً يفهم أن الدين هو مجرد عبادات شعائرية تؤدي، ويغفل عن العبادات التعلّمية، فهذه مشكلة، سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، لمّا قال له النجاشي حدثني عن هذا الدين، ماذا قال له؟ كيف فهم جعفر رضي الله عنه الدين؟ قال:

{ لَمَّا نزلنا أرضَ الحبشة جاورنا بها حينَ جاءَ النَّجاشِيُّ، فَذَكَرَ الحديثَ بطولِهِ، وَقَالَ في الحديثِ قَالَتْ: وَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا فَوْماً أَهْلَ جاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأصنامَ، وَتَأْكُلُ المِيتَةَ، وَتَأْتِي الفواحِشَ، وَنَقَطُ الأرحامَ، وَنُسِيءُ الجوارِ، وَياكُلُ القويُّ مَنَّا الضَّعيفَ، فَكُنَّا على ذلكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلينا رَسولاً مَنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأمانَتَهُ، وَعِفافَهُ، فدَعانا إلى اللهِ لتوحيدِهِ، ولتَعَبُدَهُ وَنخلَعُ ما كُنَّا نَعْبُدُ نحنُ وَأبائُنا من دُونِهِ مِنَ الجارِةِ والأوثانِ، وأمرنا بِصِدقِ الحديثِ وَأداءِ الأمانَةِ، وَصلَةِ الرَّحِمِ، وَحَسَنِ الجوارِ، وَالكَفِّ عَنِ المَحارِمِ وَالدِّماءِ، وَتَهاَنِ عَنِ الفواحِشِ، وَقولِ الرُّورِ، وَأَكْلِ مالِ البَيْتِ، وَقَدْفِ المُحصَنَةِ، وَأَنْ نَعْبُدَ اللهَ لا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأمرنا بِالصَّلَاةِ وَالرِّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيهِ أُمُورَ الإسلامِ، فَصَدَّقناهُ وَأَمَّنّا بِهِ، وَابْتَعناهُ على ما جاءَ بِهِ مِنَ عِنْدِ اللهِ، فَعَبَدنا اللهُ وَحْدَهُ، وَلَمْ نَشْرِكْ بِهِ وَحَرَمنا ما حَرَّمَ عَلَينا، وَأَحَلَّنا ما أَحَلَّ لَنا، ثُمَّ ذَكَرَ باقِيَ الحديثِ }
(صحيح ابن خزيمة)

إذاً لما لخص له الدين، قال له أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فهذا هو جوهر الدين، جوهر الدين هو صدق الحديث وأداء الأمانة.

الصفات الأخلاقية العليا والمُطلقة لله عزَّ وجل:

الأستاذ حسين:

وهذه السمات تماماً مصدرها الله سبحانه وتعالى، الذي تتجلى فيه كل هذه الأخلاقيات، فقد وصف نفسه سبحانه بالرحمة والعدل، وبالتالي امتلك الصفات الأخلاقية العليا والمُطلقة، أليس كذلك؟

الدكتور بلال نور الدين:
بالصبط، لذلك من معاني قوله تعالى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلِلَّهِ الأَسْماءُ الحُسنى فَادْعُوهُ بِها □ وَذَرُوا الَّذِينَ بُلِّغُوا فِي أَسْمائِهِ سِجْرُونَ ما كانوا يَعْمَلُونَ (180)
(سورة الأعراف)

قال أهل العلم (فَادْعُوهُ بِها □) أي اشتقوا كمالاً من كمال الله تعالى تتعاملون به مع خلق الله تعالى، فالله تعالى ودود فهل أنت ودود؟ وهو رفيق فهل أنت رفيق؟

الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليتمم مكارم الأخلاق:

الأستاذ حسين:

كيف نفهم إداً أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم، جاء ليتمم مكارم الأخلاق، بمعنى أنّ الأخلاق كانت موجودة منذ الأزل، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما جاء في قوم وفي زمن، كانت الأخلاق أحياناً مرتبكة، وشذت عن الطريق الصحيح، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليتممها، التتميم هنا هل يعني التصحيح، التعديل، التكميل، ماذا يعني؟

الدكتور بلال نور الدين:

جميل جداً هذا السؤال، فكما تفضلت

{ إنما بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ وَ فِي رِوَايَةٍ (صَالِحِ) الْأَخْلَاقِ }

(أخرجه أحمد والبيهقي والبراز)

والحقيقة أنّ العرب كانت عندهم أخلاقٌ فطرية، مكتسبة، الكرم موجود عند العرب، الشجاعة موجودة، لكن هل هي منظومة أخلاقية متكاملة؟ بمعنى أنّ جزءاً من الأخلاق مثلاً، لا يكون هناك عصبية، أو أن تقام حربٌ من أجل نافيةٍ تعثرت، لا، إذاً كان هناك نقصٌ في بعض الأخلاق، ثم كان هناك تطوُّرٌ في بعض الأخلاق، **فالفصيلة وسطاً بين رذيلتين**، الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور، وصلت فصيلة الشجاعة عند بعض العرب إلى التهور، فأخذت منحاً آخر، الكرم فصيلةً بين البخل والإسراف، ووصل بعض العرب إلى التطوُّر في هذه الفصيلة.

الأستاذ حسين:

حركة الصلعة في التاريخ العربي معروفة.

الدكتور بلال نور الدين:

الصلعة معروفة، والإسراف عند البعض للضيف والتكلف له، فجاء الإسلام، ليضيف الأخلاق التي فُقدت، والتي لم تكن موجودةً ضمن المنظومة الأخلاقية عند العربي، وليعدّل بعضها وليهذبها وليجعلها في مكانها الصحيح المنضبط، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم، هذا من موضوعيته، والموضوعية خلق.

كيف باشر الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة تتميم الأخلاق:

الأستاذ حسين:

كيف باشر الرسول صلى الله عليه وسلم، مهمة التتميم هذه؟

الدكتور بلال نور الدين:

سيدي باشر مهمة التتميم أولاً بربط الأخلاق بالمنهج الإلهي، بمعنى: أنا عندما أكون كريماً لماذا؟ هل ليقول الناس كريم؟ لا، أكون كريماً لأن الله تعالى يأمرني أن أكرم صيقي، فبدأ بالربط بالإله جلّ جلاله.

الأستاذ حسين:

على قاعدة الوجدانية ونفي الشرك.

الدكتور بلال نور الدين:

نعم، جُزيت الجئة، على قاعدة الوجدانية، لما أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى العرب، كان بإمكانه أن يعلنها دعوةً أخلاقية، وبالمناسبة كان استطاع أن يكتسب من الأتباع أكثر بكثير ممن اكتسبهم، وكان لم يكسب من المُعاداة أحد، لو كانت الدعوة مجرد أخلاق، وهم يحبونه وهو يحبهم، وأنا جئتكم فقط من أجل أن أتتمم الأخلاق، حسناً ماذا تريد؟ أريد أن تكون كرماء، فالخيل سيصبح كريماً، لكنوا استجابوا له فوراً، لكن النبي صلى الله عليه وسلم، جئت لأدعوكم لعبادة الله تعالى وحده، أولاً يجب أن تعرف الوجهة، الخلق السليم يكون بالاتجاه السليم، أنا أريدك كريماً وأريدك شجاعاً، لكن أريد الشجاعة في سبيل الله، أريد الكرم في سبيل الله، ومن هنا وقفوا ضده، لأنه وقف ضد طواغيتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، فالنبي صلى الله عليه وسلم ما أراد بناءً أخلاقياً أجوف، أراد بناءً أخلاقياً متكاملًا مرتبطاً بالله عزّ وجل، أراد بناءً أخلاقياً مرتبطاً بالمنهج الإلهي يسير عليه المؤمن، افعل ولا تفعل، فالكرم في مكانه والشجاعة في مكانها، الشجاعة ليست في أن أقتل ابن قبيلة أخرى، الشجاعة في أن أقف في الحرب لإعلاء كلمة الله تعالى، فنظم الأخلاق بهذه الطريقة، عن طريق ربطها باصلها.

الفارق بين مشروع الأخلاق في الإسلام و مشاريع الأخلاق في المذاهب الأخرى:

الأستاذ حسين:

وهنا يبدو الفارق واضحاً، بين مشروع الأخلاق في الإسلام، أو مشاريع الأخلاق في المذاهب الأخرى، سواءً كانت ديانات أو أيديولوجيات أو غيرها، مثلاً اليوم عندما نتحدث عن أخلاق اليابان، عندما نتحدث عن أخلاق الغربي، بالتأكيد لديهم منظومة من الأخلاق، لكن هذه الأخلاق هناك فوارق بينها وبين الأخلاق التي تستمد مشروعيتها من الدين، المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته، أليس كذلك؟

الدكتور بلال نور الدين:

منةً بالمنة، بمعنى أنّ الأخلاق في غير المنظومة الإسلامية، ينقصها أولاً الارتباط بالله تعالى، ثم أن تكون منظومةً متكاملة، بمعنى أنّ الأخلاق عند غير المسلم، قد تقول له مثلاً: عرضك، شرفك، أختك، أمك، يستغرب عن ماذا تتحدث! ما علاقة شرفي؟ شرفي أن لا أكذب، شرفي أن أتى إلى العمل في الوقت المحدد، هذا شرفه، تقول له أختك شرفك، يقول لك ما علاقة أختي بشرفي؟ وهذا حدث، أنا لا أقوله من فراغ، حدث في أحد المجالس لغير المسلمين، استغرب أن ترتبط الشرف بأخت الإنسان، فالمنظومة الأخلاقية موجودة، لكن هل هي متكاملة؟ لا، فالإسلام جاء لربط المنظومة الأخلاقية بمصدرها وهو الله تعالى، وجاء لوضع المنظومة الأخلاقية المتكاملة في إطارٍ متكامل، وليس إطاراً جزئياً، من هنا لما يقول صلى الله عليه وسلم مخاطباً أولياء الفتيات:

{ إذا جاءكم من تَرِضُونِ خَلْقَهُ وَدِينَهُ فَرُوجُهُ فَإِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِضٌ }

(أخرجه ابن ماجه)

رَبَطَ الدِّينَ بِالْخُلُقِ هُنَا، دِينَهُ وَخَلْقَهُ، فَالْخُلُقُ أَلْبَسَ جِزَاءً مِنَ الدِّينِ؟ بَلَى هُوَ جِزَاءٌ مِنَ الدِّينِ، وَقَلْنَا الدِّينَ هُوَ الْخُلُقُ، لَكِنْ هَلْ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ نَابِعَةٌ مِنَ التَّدْبِيرِ، أَمْ نَابِعَةٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْعَرَبِ، أَوْ أَخْلَاقِ الْيَابَانِ كَمَا تَفَضَّلْتُمْ، لَا، يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ نَابِعَةً مِنَ التَّدْبِيرِ، لِذَلِكَ قَالَ: (مَنْ تَرِضُونَ خَلْقَهُ وَدِينَهُ) تَأْكِيداً عَلَى أَهْمِيَّةِ الْخُلُقِ، لَكِنْ دُونَ فَصْلِهِ عَنِ مَنَبَعِهِ وَهُوَ الدِّينُ، لِأَنَّ الدِّينَ يَعْطَى الْخُلُقَ مِيزَتَهُ فِي الْإِرْتِبَاطِ بِالْخَالِقِ، ثُمَّ فِي مَنْظُومَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَوَفَّرَ إِلَّا فِي مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى.

الأستاذ حسين:

بعض المفكرين المسلمين يربطون علاقة الأخلاق بالدين في مسارين، أو وفق مسلمتين، الأولى مُسَلِّمَةٌ التَّوْبَلُ الدِّينِي حَيْثُ الْفَارِقُ بَيْنَ صَوْرَتَيْنِ، الصُّورَةُ الْفِطْرِيَّةُ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الدِّينُ عَلَى الرَّسُولِ، وَالصُّورَةُ الْوَقْتِيَّةُ الَّتِي تَشَكَّلَتْ مِنْ قِبَلِ الْبَشَرِ عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ، هَذِهِ الْمُسَلِّمَةُ الْأُولَى، كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَهَا؟ هُنَاكَ صُورَةُ فِطْرِيَّةُ نَزَلَ بِهَا الدِّينُ عَلَى الرَّسُولِ، وَصُورَةُ وَقْتِيَّةُ تَشَكَّلَتْ مِنْ قِبَلِ الْبَشَرِ عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ، كَيْفَ كَانَ الْفِعْلُ النَّبَوِيُّ لِتَجْسِيدِ الْمَسْأَلَتَيْنِ أَوْ الصَّوْرَتَيْنِ؟

الله تعالى عندما خلق الإنسان فطره على حب الكمال والجمال:

الدكتور بلال نور الدين:

الحقيقة أنَّ أي دعوة لا تقوم على مراعاة الفطرة البشرية التي فطر الله عزَّ وجلَّ الناس عليها، فهي عرجاء، بمعنى أنَّ الأصل أنَّ الله تعالى عندما خلق الإنسان فطره على حب الكمال والجمال، فالله تعالى فطر الإنسان، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَأَوْفَى وَوَعَدَهُ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
(30)

(سورة الروم)

الأستاذ حسين:

يعني الإنسان مفطور على خُلُق.

الدكتور بلال نور الدين:

مفطور على الخُلُقِ، يَعْنِي هَبَّ أَنْ إِنْسَانًا وَلَدَ فِي الْأَدْعَالِ، فَتَى الْأَدْعَالِ الَّذِي كَانَ يَسْمُونَهُ، وَلَدَ فِي الْأَدْعَالِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ شَيْئًا مِنَ الْأَخْلَاقِ، لَكِنْ لَهُ أُمَّةٌ تَعِيشُ مَعَهُ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهَا فِي الْحَيَاةِ، وَهِيَ جَانِعَةٌ وَهُوَ جَانِعٌ، ثُمَّ اصْطَادَ صَيْدًا ثَمِينًا فَأَخَذَهُ وَغَابَ عَنِ عَيْنِ أُمِّهِ وَأَكَلَهُ وَجَدَهُ، سَيِّئًا بِمَشْكَلَةٍ فِي ذَاتِهِ، فِي دَاخِلِهِ، لِأَنَّهُ الْآنَ خَالَفَ فِطْرَتَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكَ وَأَنْتَ لَكَ أُمَّةٌ قَدْ رَعَيْتَ، وَأَنْجَيْتَ، وَتَرَعَاكَ كُلَّ يَوْمٍ، وَتَسْعَى فِيكَ أَدْبًا وَنَنْطِيفًا وَإِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ تَأْكُلُ أَنْتَ وَهِيَ جَانِعَةٌ، فَالْفِطْرَةُ مَوْجُودَةٌ، وَلَا تُدَّ مِنْ مَرَاعَاتِهَا، لَكِنْ هَلِ الْفِطْرَةُ تَعْنِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَادِقًا؟ لَا، تَعْنِي أَنْ يَحِبَّ الصِّدْقَ، هَلِ تَعْنِي أَنْ يَكُونَ أَمِينًا؟ لَا، قَدْ يَكُونُ خَائِنًا، لَكِنَّهُ يَحِبُّ الْأَمَانَةَ فِي الْأَصْلِ، قَالَ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِيمٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَبَّنَا فِي فُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاسِخُونَ (7)

(سورة الحجرات)

ولكن ما الذي يفعله الدين هنا؟ هذه الصورة الوقتية، ما الذي يفعله الدين؟ ينقل الإنسان من الفطرة إلى الصيغة، فالفطرة تعني أن يحب الصدق، والصيغة تعني أن يصبح صادقاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِنْعَةً ۚ وَتَحْنُ لَهُ غَابِدُونَ (138)

الأستاذ حسين:

أحسنتم، هذا التداخل بين الداخل والخارج وهي المُسلمة الثانية، أنّ الأخلاق مع الصورة الفطرية للدين، تنطلق من داخل الإنسان إلى خارجه، فيما تنطلق الأخلاق مع الصورة الوقتية للدين، من الخارج إلى الداخل، اتجاهاً يصنّان في نفس النتيجة، لكنهما يبدو متعاكسين، الفطرية و الوقتية.

الدكتور بلال نور الدين:

منه بالمنة، الإسلام ينقل كما تفصلتم، من الداخل أنا أحب الخير، الإسلام يريدني أن أصبح خيراً، الفطرة أنني أحب الصدق، الإسلام يريدني أن أصبح صادقاً، فُهيء لي من الأسباب ما يجعلني أنتقل من الفطرة إلى الصيغة، فيعطيني ما هو ثواب الصادق، ويعطيني ما هو عقاب الكاذب، ويُبين لي منافع الصدق ومضار الكذب، ويوجهني إلى الله تعالى حتى أصدق ابتغاء مرضاته، ومئات الأمور كلها تتعاقد من أجل أن أخرج هذا الأمر من دائرة الحب أو الرغبة في الشيء، إلى ناحية تطبيقه عملياً على أرض الواقع، فانتقل من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إلى الصيغة التي يصغني الله تعالى بها عندما أحسين الاتصال به، وأحسين الأخلاق مع خلقه.

الأستاذ حسين:

هكذا إذاً تتم عملية التخلُّق؟

ما هو التخلُّق:

الدكتور بلال نور الدين:

هذا هو التخلُّق، وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم:

{ إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْجِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ. }

(شعيب الأرنؤوط تخريج منهاج القاصدين)

{ مَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَن يَسْتَعِنْ يُعِينْهُ اللهُ، وَمَن يَسْتَعِفْ يُعِفِّهِ اللهُ، وَمَا أَرَادَ لَكُمْ رِزْقًا أَوْسَعَ مَن الصَّبْرِ } (أخرجه أحمد والطبراني)

هذه عملية التخلُّق، وإذا كنا لا نستطيع أو لا نجرؤ على أن نقول إنّ الإنسان بإمكانه أن يصبح حليماً، إذا لا داعي للدين نهائياً سامحتي بهذه الكلمة.

الأستاذ حسين:

يمكن، بل يجب

الدكتور بلال نور الدين:

بل يجب أن يصح، إذا إنسان قال لك أنا رجل هكذا، لا أستطيع إلا أن أكذب، أحب الكذب، الكذب يجري في دمي، لا، ما هو التدبُّن؟ هو أن تتخلَّق بالخلق الجديد، أن تنتقل من الخلق القديم إلى الخلق الجديد، فتغيير الأخلاق ممكن.

الترادف بين مسألة الخلق والتخلُّق:

الأستاذ حسين:

ولهذا كان الترادف إن صح الترادف هنا، بين مسألة الخلق والتخلُّق، أليس كذلك؟ الخلق ونفس الجذر اللغوي باللغتين الخلق والتخلُّق، بمعنى أن الإنسان قادر على أن يتخلَّق، كما هو قادر أو كان من صنف الخلق.

الدكتور بلال نور الدين:

هو في العلوم الحديثة يقول لك يوجد Input و processing و Output، المدخلات هي الخلق، التخلُّق هو العمليات، والمخرجات هي ينبغي أن تكون الخلق الجديد، فالدين هو هذه العملية، عملية التخلُّق، تدخل المدخلات ونخرجها بالشكل الصحيح، بعد عملية صحيحة هي التخلُّق بما يريد الشرع، ضبط الحياة بما يريد الشرع، هذا هو معنى العبادة أصلاً، فالعبادة يعني أن تُعبّد نفسك وفق منهج الله، أنا أقول طريق معبّدة، أي وطنتها الأقدام حتى ذلك وأصبحت قابلة للمسير عليها، أنا الآن عندي شيء، والشرع يريد مني شيء يوافق ما في نفسي وشيء لا يوافقها، سأدخل في هذه العمليات وأجرى هذه العمليات التي يريد مني الله تعالى، حتى أخرج بمخرجات صحيحة، الإنسان المؤمن الذي الآن يصغ بصفة المؤمن أو بصفة الرئائي، ما معنى الرئائي؟ منتسب للربّ جلّ جلاله، فأصبح فيه الحلم، وأصبح فيه الأمانة، وأصبح فيه الصدق وأصبح من سجيته التواضع، ومن سجيته التعفّف عن الحرام، إلى آخره....

الأستاذ حسين:

كلمة الخلق الدكتور بلال وردت باللفظ هذا خلق مرتين في القرآن الكريم، مرة في وصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) ومرة أخرى بوصف ما درج عليه الأولون من أخلاق (إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ).

من هم الأولين هؤلاء؟ وكيف كان خلقهم؟ وهل كلمة خلق هنا تدرج في باب معنى الدين؟ أم العادات والتقاليد، بمعنى الأخلاق والسلوك أيضاً؟

الدكتور بلال نور الدين:

هنا جاء اللفظ الأول (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) جاءت باللفظ الشرعي، بمعنى الأخلاق التي يكتسبها الإنسان من خلال اتصاله بالله تعالى، والتي كان أعظم من عليها هو النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه أعظم من اتصل بالله تعالى، يعني أقرب الناس إلى الله أعظمهم خلقاً، وكلما كنت أقرب لله تعالى كنت أعظم خلقاً، هذا بالمعنى الأول، الآية الثانية جاءت بالمعنى العام للخلق، اليوم حتى العوام يقول لك أنا ليس لدي خلق لهذا الموضوع، أي ليس لي عادة أو طبع مُعَيَّن به، أسوأ شيء في الإنسان هو أن يتعلق بخلق الأولين، أي الماضين، بمعنى أن يقول لك نحن هكذا تربينا، أنت الآن تريد أن تغيّر العادات! من أين جئت لنا؟ نحن هكذا نشأنا، أنت هكذا نشأت لكن الذي نشأت عليه ليس قرآناً ولا كلاماً مقدساً، هذا الذي نشأت عليه فيه إشكال شرعي، فينبغي أن تغيره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (22)

(سورة الزخرف)

هذه المشكلة التي يُسمّيها بعض العلماء الآبائية، أو التقليد الأعمى غير المنصبط، لذلك جاء الإسلام باحترام العرف لكن بالعرف الصحيح الصالح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)

(سورة الأعراف)

فالعرف الصحيح الذي يوافق ما نحن عليه من خلق الأولين، نأخذ به، لكن ما كان من خلق الأولين فيه سفاهة أو بعد عن الحق، أو فيه إنكار للحق بسبب تعصبي أو بسبب مصالح، فهذا لا نأخذ به.

الأستاذ حسين:

بارك الله بك فضيلة الدكتور بلال نور الدين، أستاذ الشريعة والفقه على هذه المداخلة، جزاكم الله كل خير، شكراً لك دكتور بلال.

الدكتور بلال نور الدين:

وإياكم، أحسن الله لكم.